

الحلقة السادسة عشرة

أمثال المسيح

برنامج أنوار كاشفة

نرحب بك مستمعي العزيز في هذا اللقاء الجديد من برنامج أنوار كاشفة. بدأنا قبل عدة لقاءات بالحديث عن أمثال المخلص يسوع المسيح. ويقارن المثل بين شيء مألوف للناس، وآخر غير مألوف لديهم. وذلك لإيضاح حقائق يريد صاحب المثل إيصالها إليهم.

ولقد استخدم المسيح الكثير من الأمثال، لإيضاح الحقائق الروحية، وليكشف الهدف الذي أتى من أجله. وكنا قد تحدثنا في اللقاء السابق عن مثل محاولة جلوس المدعوين إلى عرس في المتكأ الأول، مع أنهم قد لا يكونون مستحقين ذلك. وختم المسيح قائلاً: « لأن كل من يرفع نفسه يتضع، ومن يضع نفسه يرتفع».

صديقي المستمع، هل تظن أنك إنسان صالح؟ فأنت تقوم بكل الفرائض الدينية، تصلي كل يوم؟ وتصوم كما هو مطلوب منك؟ وتحاول مساعدة المحتاجين والفقراء؟ ولا تؤذي أحداً من الناس؟ وتقوم بالذهاب إلى مكان العبادة؟ وتعمل قدر الإمكان لإرضاء الله؟ لكن هل تأديتك لهذه الواجبات والفرائض الدينية تجعلك تفخر بنفسك؟ وتظن أنك أفضل من الآخرين؟ هل تعلم مستمعي أن هناك الكثيرين ممن هم بهذه الحالة؟ وينطبق عليهم هذا الوصف؟

ولهذا نجد أن المخلص المسيح قد « قَالَ لِقَوْمٍ وَاثِقِينَ بَأَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ أَبْرَارٌ، وَيَحْتَقِرُونَ الْآخَرِينَ هَذَا الْمَثَلُ: «إِنْسَانَانِ صَعِدَا إِلَى الْهَيْكَلٍ لِيُصَلِّيَا، وَاحِدٌ فَرِيْسِيٌّ وَالْآخَرُ عَشَارٌ. أَمَّا الْفَرِيْسِيُّ فَوَقَفَ يُصَلِّي فِي نَفْسِهِ هَكَذَا: اللَّهُمَّ أَنَا أَشْكُرُكَ أَنِّي لَسْتُ مِثْلَ بَاقِي النَّاسِ الْخَاطِئِينَ الظَّالِمِينَ الزُّنَاةَ، وَلَا مِثْلَ هَذَا الْعَشَارِ. أَصُومُ مَرَّتَيْنِ فِي الْأُسْبُوعِ، وَأَعَشِّرُ كُلَّ مَا أَقْتَنِيهِ. وَأَمَّا الْعَشَارُ فَوَقَفَ مِنْ بَعِيدٍ، لَا يَشَاءُ أَنْ يَرْفَعَ عَيْنَيْهِ نَحْوَ السَّمَاءِ، بَلْ قَرَعَ عَلَى صَدْرِهِ قَائِلًا: اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي، أَنَا الْخَاطِئُ. أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ هَذَا نَزَلَ إِلَى بَيْتِهِ مُبْرَرًا دُونَ ذَلِكَ، لِأَنَّ كُلَّ مَنْ يَرْفَعُ نَفْسَهُ يَتَّضِعُ، وَمَنْ يَضَعُ نَفْسَهُ يَرْتَفِعُ» (بشارة لوقا ١٨: ٩-١٤).

كان الناس في أورشليم وجوارها معتادين على الذهاب إلى الهيكل للصلاة. لأن الهيكل كان مركز العبادة لليهود في تلك الأيام. ويبدو واضحاً أن الفريسي وهو من فرقة دينية يهودية متمزعة، لم يكن يذهب إلى الهيكل ليصلي، بل ليُري الناس في كبرياء وتعجرف أنه صالح وتقي. أما العشار أي جابي الضرائب في ذلك الوقت، فقد ذهب إلى الهيكل مدركاً خطيئته، وملتمساً رحمة الله. وكان جباة الضرائب يستغلون منصبهم، فيفرضون ظلاماً على الناس الضرائب الباهظة، وهكذا يجمعون لأنفسهم ثروة كبيرة، عن طريق القوة واستغلال السلطة.

لقد أدرك العشار عظم خطيئته، وطلب رحمة الله. بينما ظنّ الفريسي بسبب ممارسته للفرائض الدينية، أنه إنسان بارّ وليس بحاجة إلى التوبة عن خطاياهم. وهذا ما أوقعه في خطيئة البر الذاتي ونتيجتها الكبرياء. وليس هذا فحسب بل أدت به إلى احتقار الآخرين، كما لاحظنا من صلاته. وكانت النتيجة كما علّق المسيح: « **إِنَّ هَذَا - أي العشار - نَزَلَ إِلَى بَيْتِهِ مُبْرراً دُونَ ذَلِكَ، - أي الفريسي - لَأَنَّ كُلَّ مَنْ يَرْفَعُ نَفْسَهُ يَتَضَعُ، وَمَنْ يَضَعُ نَفْسَهُ يَرْتَفِعُ.** » لقد غفر الله خطايا العشار بالرغم من عظمتها، لأنه اعترف بها وطلب الرحمة، بينما لم يسامح الله الفريسي لأنه كان مفتخراً بنفسه.

هل تعلم مستمعي أن البر الذاتي مدمر وخطير لحياتنا؟ فعندما يظن الإنسان أنه صالح وليس بحاجة إلى التوبة، وبالتالي إلى رحمة الله، فهذا لا بد أن يوقعه في خطية الكبرياء ويؤدي به إلى احتقار الآخرين. وتكون النتيجة أن يقع عليه غضب الله. وهذا ما نلاحظه مع الكثيرين من أذعياء التدين من أي دين كانوا. فهم وبسبب قيامهم بالفرائض الدينية حسب الظاهر، يظنون أنهم أناس صالحون، وينظرون للآخرين بدونية واحتقار. وهكذا يصبح عندهم ما نسميه بالبر الذاتي، ومن الصعب جداً إقناعهم أنهم أناس خطاة وبحاجة إلى التوبة.

مستمعي الكريم، أين تصنّف نفسك؟ هل أنت مثل الفريسي الذي يقوم بواجباته الدينية؟ ويظن بنفسه أنه إنسان صالح ولا يحتاج إلى التوبة؟ وهل تقتخر بنفسك وتنتظر إلى الآخرين بازدياد واحتقار؟ وهل تصلي مثل الفريسي شاكراً الله أنك لست مثل باقي الناس الخطة الظالمين الزناة؟ أم أنك مثل العشار الذي يعترف بخطاياهم؟ ويصلي إلى الله قائلاً: « **اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي، أَنَا الْخَاطِئُ.** »؟ فيهبك الله الغفران الكامل عن خطاياك وتصبح من أولاده المبررين. أي يصدق عليك الله برحمته، لأنك اتضعت واعترفت أنك إنسان خاطئ. أرجو أن تكون من هذا الصنف.

هل تعلم مستمعي أننا جميعاً أناس خطاة؟ حتى وإن كنا نقوم بإداء واجباتنا الدينية من صلاة وصوم وزيارة للأماكن المقدسة، ومساعدة الفقراء والمحتاجين؟ فهذا لا ينفي كوننا أناس خطاة. إن طبيعتنا من الداخل هي طبيعة شريرة، ولهذا نحن بحاجة لكي نتوب أولاً عن خطايانا، ونطلب رحمة الله. إن كلمة الله تعلن بكل وضوح: «أَنَّهُ لَيْسَ بَارٌّ وَلَا وَاحِدٌ. لَيْسَ مَنْ يَفْهَمُ. لَيْسَ مَنْ يَطْلُبُ اللَّهَ» (الرسالة إلى رومية ٣: ١٠-١١). «الرَّبُّ مِنَ السَّمَاءِ أَشْرَفَ عَلَى بَنِي الْبَشَرِ، لِيَنْظُرَ: هَلْ مِنْ فَاهِمٍ طَالِبِ اللَّهِ؟ الْكُلُّ قَدْ زَاغُوا مَعًا، فَسَدُوا. لَيْسَ مَنْ يَعْمَلُ صِلَاحًا، لَيْسَ وَلَا وَاحِدٌ» (مزمو ١٤: ٢ و٣).

من الواضح إذن أننا كبشر جميعنا خطاة حتى ولو كنا أناساً متدينين، ونمارس الفرائض الدينية. هذا ما تؤكد لنا كلمة الله كما جاءت في الكتاب المقدس. ولهذا على كل واحد أن يعترف أولاً ويقر أنه إنسان خاطئ، ويطلب رحمة الله على خطاياها. ولا يجعل البر الذاتي والكبرياء أن يفسدا حياته.

هل تصلي مستمعي إلى الله كما صلى العشار قائلاً: «اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي، أَنَا الْخَاطِيءُ»؟ لقد هيا الله لنا الفداء بواسطة موت المسيح الكفاري على الصليب وقيامته الظاهرة. وعندما نتوب وتؤمن بالمخلص المسيح وعمله المجيد، يغفر الله ذنوبك، وتصبح من أولاد الله، وتتأكد أيضاً من نوالك الحياة الأبدية.